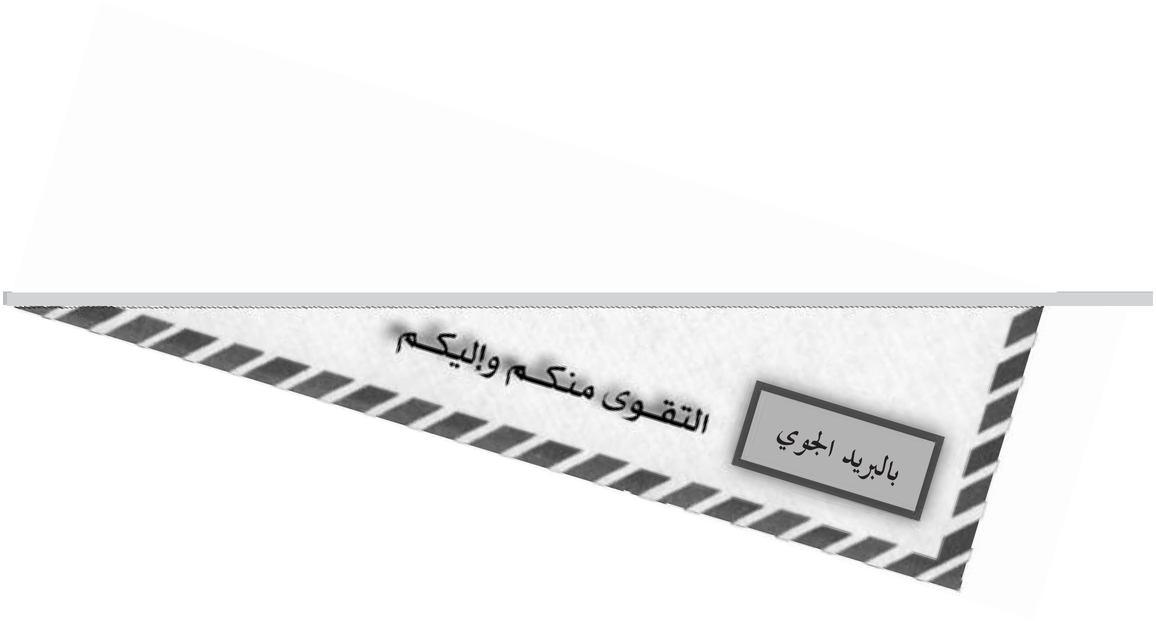

❁ ترحب مجلة التقوى في هذه الزاوية (منكـم واليكـم) بجميع المساهمات من قرائها الكرام وسنحاول إن شاء الله نشر أكبر عدد ممكن من المساهمات على صفحاتنا، مع التنويه إلى أن هذه المساهمات تعبر عن آراء القراء وليس بالضروري عن رأي المجلة.

❁ نرجو من جميع القراء كتابة مساهماتهم وآرائهم بخط واضح وعلى وجه واحد للورقة، أو طباعتها على الكمبيوتر إذا أمكن ذلك.

❁ نرحب بالمساهمات على عنواننا أو على البريد الإلكتروني.

The Editor AL Taqwa, P.O.Box 12926, London SW18 4ZN (U.K)

أولَى الخُطُوَات لاكتشاف السعادة الحقة!!

يبحث كثير من الناس عن السعادة ويتلمسون الطريق الذي يوصل إليها، وكأني بهم جميعا يبحثون عن المفقود في عالم المجهول. فبعضهم يصيب الهدف والبعض الآخر يخطئه التوفيق.

فما هي السعادة إذن؟ سؤال لطالما حير التفكير الإنساني منذ بدء الخليقة إلى اليوم، فأعمال الناس تتكيف تبعا لتصورهم للسعادة، فمن هداه تفكيره إلى سعادة روحية كانت وسائل وصوله إليها روحية، ومن قاده خياله إلى سعادة مادية كانت خطواته إليها مادية، إذن فباعتبار تصور السعادة يكون سلوك الناس ترجمانا لأخلاقهم، فمن شغف بالماديات وكان حريصا عليها كان بديهيا أن يكون طبعه ماديا، ومن يكن سلوكه وتصرفه روحيا كان خلقه بحسب منطلقه روحي الدلالة والمعنى. ومن هنا يسهل علينا أن نحكم على أخلاق الناس بناءا على السعادة التي تصبو نفسهم إليها أو ابتغاء الحصول عليها. إن السعادة تختلف من حيث الرؤية وزاوية النظر من شخص لآخر، فالفقير المحتاج يراها مثلا عند الأغنياء! والمريض العاجز يراها عند الأصحاء، والمحب يراها في إرضاء محبوبه، وهكذا دواليك كل يسعى إلى ما يرى فيه سعادته أو يتمنى ويتخيل فيه هذا الأمر كلما حرم منها أو بعد عنه إشتياقا إليه.

فالسعادة إذن بحسب تحليل سيكولوجية نفس الإنسان هي ذلك الشعور الذي يحس به الإنسان عند امتلاكه لشيء يفقده أو يبتغي تحصيله، فكأن السعادة بهذا الاعتبار هي التي يسبقها الإحساس بفقد شيء مرغوب فيه، وبقدر ما ينال الإنسان من آمال تكون سعادته، والعكس بالعكس، فبقدر ما تنهار الآمال

والطموحات يكون إحساس بالشقاء وهكذا..

وما دمنا قد عرفنا ذلك فنستطيع أن نقول: أن السعادة هي إرضاء للنفس، إذ كلما قَلت مطالب النفس كان إرضاؤها ميسورا، وعليه فالسعادة تقتضي تحديد مطالب النفس باسترشاد العقل وهدي تعاليم الدين وإلا مالت النفس بصاحبها نحو مهاوى الفساد، وقادته نزعاتها الأمارة بالسوء إلى حالة طبعية بدائية تنزله منزلة البهيمية والسبعية. ولو اتبع الناس هذه المعادلة أي تحديد مطالب النفس بقياس العقل وهدي الشريعة لكان من السهل عليهم أن يكونوا كلهم سعداء! بمعنى أن تصرف الإنسان في حالته النفسية الطبعية على ضوء توجيه عقلي وعرفاني وبمراعاة حد الإعتدال لا تبقى رؤيته للسعادة وتعريفه لها بحسب ما كانت تمليه عليه نوازعه الأمارة، إذ كان يرى فيما قبل استرشاد العقل والمعرفة (الشريعة) السعادة في غصب حقوق اليتامى ونهب أموالهم أو في إشباع الغرائز والنزوات، أو في الوصول إلى مكامن القوة للإستعلاء وقهر الضعفاء!!، نعم هكذا كان يرى شكل سعادته ولونها، لكن بعد تحديد مطالب النفس باسترشاد العقل والمعرفة تغيرت نظرته وأصبح ما كان يراه سعادة مزيفة ظاهريا رحمة وباطنها عذاب! وهذا التغير إن دل على شيء فإنما يدل على أنه اكتشف تحت ضوء العقل والمعرفة أن حالته النفسية التي كانت توحي إليه دون قيد أو شرط السعادة إنما كانت توحي إليه الشقاء، وأن ما كان يتصوره من سعادة في نهب حقوق الناس وأموالهم هو ظلم. وفي إشباع الغرائز وارتكاب الموبقات هو فساد، وفي الوصول إلى القوة والاستعلاء على البشر هو تجبّر وطغيان! هكذا تكتشف الحقيقة والسعادة الحقة بعد تغير في النفس من حالة طبعية أمارة إلى حالة أخلاقية لوامة، حيث لا تبقى هذه الحالات في نفس صاحبها طباعا، بل تصير أخلاقا بفضل العقل ونور الشريعة أو ما يمكن تسميته بالعرفان.

إن السعادة التي يبحث عنها الإنسان منذ القِدم والتي لطالما تناولها الفلاسفة والمفكرون بحثا وتحليلا إنما بذرتها تكمن في نفس كل إنسان كامنة لا تنمو ولا تنبثق إلا حينما تتوفر الشروط الملائمة لها، فمتى تحولت النفس من طبعيتها إلى أخلاقيتها فهمت السعادة الحقة وانتقل الإنسان إلى مراحل متقدمة من حالات النفس ليصل بها إلى حالة روحانية هي أقصى ما يصل إليه الإنسان من سعادة في دنياه قبل أخراه وهي النفس المطمئنة. فالسعادة الحقة هي في الإيمان، إذ به يكون رضى النفس ورضى الله وبه تسكن النفوس. كل شقاء يعاني منه المجتمع البشري هو نتيجة حتمية لعدم فهم واستيعاب معنى السعادة النموذجية بفعل انقياد أعمى لميولات نفس طبعية أمارة توهم الإنسان إفراءا بسراب يحسبه ماءا فينتهي به اللهث وراءه نحو الهلاك والمعانات، فالظلم والعدوان ومظاهر الفساد البشري هي سعادة وفق منظور ما يراه المستغلون والطغاة وتجار الحروب بما يجنونه من منافع مادية هائلة، فحينما يستطعم الإنسان استغلال أخيه الإنسان بحسب ما يتصوره من وراء ذلك من مبررات تحقيق السعادة، عكس لنا هذا المثال أن تعريف السعادة في فهم الإنسان يشوبه كثير من الإلتباس ودلل لنا أيضا أن إشكاليتها لم يجد لها الفلاسفة ولا المنجمون ولا الساسة حلا ناجعا سوى الحل الذي طرحه الإسلام بمنهجه التشريعي الكامل والخالد في الكتاب والسنة النبوية الطاهرة. إن للسعادة علاقة وثيقة بالنفس وحالاتها وعلى هذا الأساس كان اهتمام الإسلام بهذه الجوانب المتعلقة بحالات الإنسان وطرق إصلاح النفس الشيء العظيم الذي يوصل في نهاية المطاف إلى السعادة الأبدية والجنة الأرضية، حيث قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمان: ٤٧ و٤٨). أي سعادة دنيوية روحية يعيش صاحبها في جنة دنيوة وجنة أخرى في الآخرة بعد الموت. إن المدعين بأن السبيل إلى السعادة إشباع

حاجات النفس دون قيد أو وازع خطأ فاحش وزعم باطل لأن إرضاء النفس بالمطلق والحرية دون ضابط يوجهها ستدفعه تلك السعادة المتوهمة إلى الوقوع في شباك السوء ومذاهب المنكرات، لذلك نبه القرآن البشرية إلى هذا الخطأ قائلا: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (يوسف: ٥٤). وحيث أن البشرية استخفت بهذا التنبيه القرآني وانكبت وراء نظريات إشباع الحاجة وشعارات التحرر والسعادة المادية المفرطة سببت لنفسها العديد من الكوارث الأخلاقية والإجتماعية لها وللآخرين، فلا هي وصلت إلى حيث ظنته سعادة ولا هي أخذت عبرا مما هي تعانيه من تحلل وتفسخ ورذيلة وانعدام السكينة ؟؟!

إن الوصول إلى السعادة متاح لكل إنسان شريطة تحديده لمطالب النفس تحت ضوء العقل والمعرفة تجاوزا للنفس الأمارة بالسوء وتقييدا لها، ثم وصولا إلى مرحلة النفس اللوامة تمكن الإنسان من النفور التلقائي من كل الأهواء والأماني الخبيثة الشريرة حيثما تبادرت إلى الذهن، آنذاك كان للإنسان أن ينتقل إلى السعادة الحقيقية التي لا يطالها شقاء وهي النفس المطمئنة التي هي منشأ للحالات الروحانية كلها قال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً* فَادْخُلِي فِي عِبَادِي* وَادْخُلِي جَنَّتِي*﴾ (الفجر: ٢٨ إلى ٣١)

كما وجه الله تعالى الناس إلى حياة أخرى فيها سعادة أبدية تفوق سعادة الدنيا وما فيها، وهذه الحياة الأخرى بما فيها من نعيم مقيم هي إنعكاس لمستوى روحانية المؤمن وسعادته الروحية في دنياه والتي يجليها الله لعبده المؤمن السعيد، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٦). هذه هي سعادة الصالحين في الآخرة حيث يدخلهم ربهم الجنات ليتذوقوا بجلاء طعم الروحانية التي أحسوا بحلاوتها في مشوار حياتهم الروحية في الدنيا وهم ينتهجون منهج الله وعمل الصالحات.

كثير من الناس يبحثون عن السعادة في الحياة فيختارون طريق الضلال والفساد آملين أن يحقق لهم السعادة بينما تركوا طريق السعادة الحقة التي رسمها الله سبحانه وتعالى للوصول بهم إلى سعادة دائمة ونعيم مقيم وسكينة قلبية، فالجدير بالإنسان أن لا يتخبط وخير له أن يلتمس السعادة من أصولها، يقول تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٤) فلا تبحثوا عن السعادة بعيدا أيها الناس ما دام الله قد رسم لكم طريقها وهو أعلم بكم من نفوسكم وهو أدرى بنفعكم وضاركم حيث قال: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٧) فاتجهوا نحو الله بقلوبكم ليُيسر لكم أموركم ويرزقكم من نعمه الظاهرة والباطنة، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٣ و٤). فلا تتخبط أيها الإنسان وتبحث عن السعادة في بواعث نفسك الأمارة ففيها هلاكك، وسر بنفسك نحو مدارج الإيمان تزكية لها ووصولا بها حيث تكون نفسا مطمئنة ملؤها السعادة الروحانية الحقة والتي هي قبس يسير من نفحات سعادة الآخرة.

جعلنا الله وإياكم من السعداء على منهج الله عز وجل وأدخلنا وإياكم فيمن قال في حقهم: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود: ١٠٩) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مساهمة الصديق: جمال المذكوري (المغرب)